الكمال فكانت في ثلاثة ادوارٍ من التاريخ الدور الاول الفلسفة الرواقية التي صحبت فقهاء الرومان فسنوا الشرائع وجمّدوها بمبدإ الحق والواجبات والدور الثاني المسيحية التي جاءت بالمبدإ السامي حب الله والقريب والدور الثالث الثورة الفرنسويّة سنة ١٧٧٩ التي ايّدت مبدأ الحرية في الكون على اختلاف اقسامها من سياسية ودينيّة ومدنيّة بحيث صار الانسان معها انسانًا

ل . ي

الفلسفة الحديثة[1]

للانسان ساعة يقف فيها يتأمل في هذه العوالم فيقوده الفكر الى ما وراء المشاهد من الطبيعة فيسأل عن اصل الاكوان ومصيرها ويتبصّر في مسألة الموت وهولها فيودّ لو يخترق حجاب القبر ويرى قبل موته عالم الحشر

اين كنا وماذا نصير . من خلق العالمين ومن سنّ السنن التي تجري عليها وما القصد مما نرى من اجزاء الوجود ومظاهر الطبيعة . تلك مسألة المسائل التي لا بد للباحث من النظر فيها فإما ثبات على رأي قديم واما تعلق بخيوط العنكبوت التاصر . والانسان بين ما ورث وبين ما يرى الغريق وسط اللجج تتقاذفهُ التيارات وتتلاعب بهِ الامواج فلا يشعر الاّ وقد وهنت عزيمتهُ وقلت في امر النجاة حيلتهُ فيستسلم لعوامل الفناء ويرضى بالرغم عنهُ بحكم القضاء

والمسألة دقيقة تقتضي البحث الطويل والروية الكاملة فكاتٍ ممن جربوا الخوض فيها وخانتهم عقولهم وكاتٍ ممن لزموا التمسك باتوالهم الموروثة فتمادوا في العناد وقامت قيامتهم على من استسلم لعقلهِ في امر القياد — هؤلاء الفلاسفة والمفكرون من سلم منهم من لسان المتعصبين ومن نجا منهم من سهام المنتقدين وهؤلاء المحافظون كم استهزأ بهم المارتون وعدّوا آراءهم آراء العجائز وكلهم معذور في امرهِ فان السالك وعر والطريق عسر لا يأتي فيهِ الاّ الكامل المعتاد الواسع الدراية وقليل من هم

ولقد قرأت ما تيسر لي من كتب الفلسفة فلم ارَ في احدها ما ينتج لنا حل هذه المسائل بل رأيتُ آراء القوم شتى كلٌّ يدعي صحة برهانهِ وكلٌّ يقول ببطلان ما سواهُ حتى لقد حرت في اي طريق اسلك واي باب اقرع فتلت ابسط للقوم آراء القوم متخلصاً من

(١) خطبة تليت في « حفلة الادباء » في الكلية السورية الانجيلية ببيروت تحت اسم ضلال اطلاّ

التبعة واللوم متحاشياً التصريح الاَّ في ما رآه مطابقاً للعقل وما المرء بملوم اذا سار بحسب ما يتوهمه صحيحاً الهمهُ اذ لم يرَ ما هو افضل منهُ

***

كيف حدث الوجود وفي اية طريقة ظهر وما هي العلة الاولى التي تفرعت عنها سائر العلل — اسئلة حارت في ظلماتها الفلاسفة فقال احدهم ليس للكون اول ولا آخر فهو ازلي ابدي تتغير صورة المادة فيهِ وتتشكل مظاهرها ولكنها واحدة وجدت مع الازل وستبقى الى الابد. وقال غيرهُ بل المادة حادثة تتشكل بحسب الصور التي وجدت قبلها فالمادة عندهم حاصلة من وجود سموي بالقوة ثم طرأ عليها ما ابرزها الى حالة الوجود الحقيقي . وقالت الفئة الكبرى العامة منع القوة متسلط على العالمين هو وضع السنن واجرى النظام الى غاية وما المادة بالشيء السرمدي ولكنها حادثة من العدم بقوة الخالق العظيم . وقال غيرهم يستحيل على العقل ان يدرك ماوراء الطبيعة وكل ما نقدر ان نعرف من هذا الوجود صور ومظاهر لا غير وكل رأي عن اصل المادة فاسد لا يمكن للعقل قبولهُ ولا أمل لنا البتة في ادراك سرّ الوجود بل كنا وسنبقى في ظلمات الجهل الى الابد

ولا بد لي قبل الاسترسال في ما نحن بصدد من بسط المسائل التي يدور عليها بحثنا واهمها ما يأتي (١) حدوث الكون (٢) وجود الله (٣) المادة والنفس . ولنتقدم الى النظر في كلٍّ منها

قال العلماء ان المادة مؤلفة من عناصر مختلفة وان هذه العناصر تتألف من جواهر فردة وقد زاد المحدثون على ذلك ان الجواهر الفردة نفسها ليست ببسيطة ولا متماثلة بل هي ايضاً تتألف من ذرات يستحيل على العقل تصوّرها وسمّوا تلك الذرات بالكريّات وقالوا ان هذه الكريات اقطاب كهربائية منها الايجابية ومنها السلبية وانهُ بحسب مجرى الكهربائية من حيث سرعتها وكمية الكريات الحاملة لها تتشكل الجواهر وتتنوع العناصر

ورأى الماديون ذلك فقالوا في الجواب عن السؤال الاول ان المادة بسيطة جدًّا جواهرها متماثلة وجدت بنفسها ويستحيل ان تكون من العدم لان العقل البشري لا يمكن ان يتصوّر مادةً تتلاشى الى درجة العدم فكيف يحكم بوجودها في زمن من الازمان في حالة لا يمكن ان تصير اليها . وكل ما يستطيع العقل ان يصل اليهِ انما هو ادق جزء من اجزائها بحيث يستحيل على التصور ان يدرك ما وراءهُ فاذا كانت المادة لا تتلاشى وهو ناموس طبيعي مقرّر فهي لم تحدث من العدم ولكنها هي وما بها من القوى أزلية وجدت في ابسط ما يستطيع العقل تصورهُ من النظام . كل اجزائها متماثلة ثم تغيرت وتشكلت على ما سنبينهُ

فاذا قيل كيف تسنّى لبسيط المتماثل ان يصير مركباً متنوعاً مع عدم وجود قوة خارجية تدفعه الى ذلك فالجواب ان الفيزيائي الذي وجدت متماثلة الاجزاء لم تثبت على ما كانت عليه من التماثل لان كل جزء من اجزائها المتماثلة كان معرّضاً لقوى تختلف باختلاف مركزه بالنسبة الى بقية الاجزاء . فالجزء الواقع في المركز مثلاً لم تكن التوى الفاعلة فيه كالقوى الفاعلة في الجزء الواقع بعيداً عن المركز ذلك لان نسبة هذا الجزء الى بقية الاجزاء من حيث البعد غير نسبة ذلك . ولما كانت القوى الفاعلة في الاجزاء غير متماثلة من جهة تأثيرها تغيرت الهيولى الاصلية عن وضعها الاصلي وكانت كلما ازدادت تغيراً ازداد اختلاف القوى الفاعلة فيها فتقدمت من البسيط الى المركب وما زالت تتغير وتزداد تركيباً حتى ظهر العالم وبرزت الطبيعة بنباتها وحيوانها وجمادها . فالمادة والقوة هما الشيئان الازليان الابديان وجدا ولم يزالا واحداً في كل صور الوجود ومهما تنوعت اشكال المادة ومهما تغيرت مظاهرها فهي واحدة لم تخلق ولن تتلاشى . كذلك القوة التي بها ندرك المادة ونشعر بها دائمة لا تنقص ولا تضمحل وكل ما في الكون من افلاك ونجوم وحي وجماد انما هو نتيجة من نتائج القوة الفاعلة في المادة . وارجاعه الى نواميس طبيعية مقررة كاستمرار القوة ودوام الحركة وعدم ثبات المتماثل وبقاء المادة كان الشغل الشاغل للفلاسفة المحدثين

فالكون على المذهب المادي حادث بالصدفة من تفاعل القوى والمادة فهم ينكرون الخالق ولا يقرون بالحدوث من العدم لان الحدوث من العدم عندهم امر لا يتصوره العقل وما لا يتصوره الذهن لا يجوز ان يقال ان له صورة في الخارج فاعمك يباهيهم عن اصل المشاهد في الطبيعة وارجاع الاسباب الى شرائع مادية محضة . ولما قال الماديون بازلية المادة قاموا يبينون كيف حدثت العوالم فاتخذ بعضهم الشؤ الطبيعي ناموساً عاماً وفسّروا لنا بطرائق كثيرة كيفية تفرق النجوم وكيفية حركاتها طبقاً لمقتضى ناموس الجاذبية العام ثم اوجدوا الارض على الرأي السديمي من تقلص سديم الشمس من انفصال الحلقة الخارجية لتساوي قوتي الجذب والدفع كما هو مقرر في كتب الفلك . ولما انفصلت الارض وبدأت تتقلص وهي محافظة على حركتها المكتسبة من الحركة الاصلية السابقة انقمرعنها كما انسلخت هي عن الشمس وبرد سطحها . كل ذلك والملايين من السنين تكرّ عليها ثم صارت صالحة للحياة فظهرت الاحياء البسيطة تدرّجاً من المادة وما زال الارتقاء يغير وينوّع ويبدل حتى انفصلت النباتية والحيوانية ثم الانسانية بعد ان تفرعت فروعها وتنوعت انواعها بالانتخاب الطبيعي وتنوع الافراد . ومع جمال هذه الادلة فالعقل البشري لم يقتنع بها كل الاقتناع بل سأل وما وراء المادة . وانّى تسنّى

لها ان توجد بلا موجد . وكيف تمّ هذا النظام الذي نراهُ في الكون بدون منظّم . فقادهُ ذلك الى وضع صور ازلية وجدت قبل المادة ثم تدرج الى القول بخالق للصور وان ذلك الخالق شكّل المادة على مقتضى الصور الازلية . فالخلقيون يجيبون عن السؤال الاول ان الله السرمدي خلق المادة من العدم وسنّ لها نظامات ابدية تجري على مقتضاها ولكنهم يختلفون في ما بعد ذلك فمنهم من يقول ان الخالق اجرى المادة على سنن وتركها تجري بحسب تلك السنن وان النشوء الطبيعي سنة من سنن الله استخدمها في تصوير صور الموجودات ومنهم من خالف ذلك فقال ان الله خلق المادة والنظام ولكن لم يتركهما لحكم الصدفة بل هو يتداخل في كل شيء وهو خلق الانواع ولا تزال قوتهُ فاعلةً في كل اجزاء الوجود

هذا هو السؤال الاول بحسب ما اجاب عنهُ المفكرون على ان العقل واقف بين هذا وذاك تارةً يؤلّه المادة وطوراً يجعل الاله مادةً ثم يتراجع قليلاً ويسأل أمن اله وراء الاكوان ام ذلك ماورثناهُ من اسلافنا وما رايناهُ في احلامنا . هل من الهٍ وراء الطبيعة . تلكم المسألة التي يقف الانسان عندها ذاهلاً حيران ينظر الى السماء يناشد النجوم ثم يرجع في العقل الى العقل يناجي الوجدان ثم يلتفت الى الطبيعة ويسأل نواميسها فيتلمّس لسانهُ ويرتجّ عليهِ

***

الله موجود في العقل البشري من يوم وجد الانسان ووجودهُ عام بين كل الامم وفي كل البلدان فكيف ذلك ؟ قال الالهيون ان ذلك دليل واضح على ان الاعتقاد بالله تعالى لم يكتسب اكتساباً بل هو وضعي في نفس الانسان من يوم وجد الى الآن . تفلسف في اعماق التاريخ تجد ان القوة الخالقة كانت موجودةً في العقل البشري من اقدم الازمان وهي لا تزال كذلك في احط العقول البشرية بين اكلة لحوم البشر وبين البرابرة سكان المغاير

من اين اتى ذلك الفكر العام لولا ان الله اوحى بهِ الى نفس الانسان ولولا ان بين نفس الانسان وبين خالقها علاقة معنوية يستدلُّ بها الانسان على وجودهِ . ان وجدان المرء يدفعهُ الى الاقرار بذلك ويسوقهُ الى الشعور بقوة اعلى منهُ . اعتبر ذلك في النقصان الذي نراهُ على الارض . ألا ترى ان قصر عقولنا يقودنا بحكم ناموس التضاد الى القول بوجود عاقل كامل وان طبيعتنا الفاسدة تسوقنا الى الحكم بوجود طبيعة عاقلة عادلة وانهُ كما ان لكل شيء ضدًّا كالنور والظلام والعدل والظلم والموت والحياة — كذلك العقل المحدود يضادهُ العقل غير المحدود والادراك الناقص يقابلهُ الادراك الكامل

ولقد سار العقليون في براهينهم على وجود الله في ثلاث طرق فعلى الاول ان ارتباط كل شيء في الكون يسوقنا الى الاعتقاد بكائن مطلق بالضرورة ولا يمكن ان يكون ذلك الكائن المطلق الاَّ كاملاً غير مقيد بحال فهو كائن كما هو وكل حقيقة كائنة كما هي به فقط . اما الثانية فلها فرعان الاول القصد في الاكوان وهذا لا ارى من لزوم للخوض فيه لاني لم أر البتة فيما كتبوهُ ما يحملنا على الاعتقاد بذلك . وقد صرَّح لوتزي وهو من أئمة العقليين فقال اذا اردنا ان نبرهن على وجود الله باثباتنا القصد لاعمال الطبيعة فذلك ما لا يثبتهُ لنا الاختبار ولا يبينهُ لنا الواقع واما الثاني فارتباط الافراد بناموس واحد فان وحدانية النواميس تقودنا الى وحدانيَّة الكائن . قال لوتزي ومن تأمل في قولنا ان ناموساً واحداً يشمل افراداً عديدة يرَ ان ذلك لا يمكن للعقل ان يتحضرهُ ما لم يرَ وحدةً اصلية لكل ما هو حقيقي في العالمين

وفي الثالثة نرى ان القوة العظمى اما خيالية او حقيقية نكونها خيالية لا يسلّم بهِ العقل لان القوة العظمى في الذهن لا تساوي القوة العظمى في الخارج فالفكر لا يرتاح الى القول بانها وهم او فكر لا غير وما عدم الارتياح فقط الاَّ دليل على وجودها حقًّا في الخارج . واذا قال بعضهم ان القوة العظمى هي النظام العام فيردُّ عليهِ ان النظام لا يثبت بدون من ينظمهُ ثم ان العقل لا يقبل القول بأن القوة العظمى مجرد نسبة بين الاجزاء لا غير وهو النظام العام . فالقول بالنظام انهُ قوة عاملة عبث باطل لولا انهُ يقودنا الى القول بالمنظِّم واذا كان قولنا بالنظام الطبيعي يقودنا الى الاعتقاد بالمنظم فكم بالحري قولنا بالنظام الادبي

ولقد اعترض بعضهم على شخصية الله بقولهم انا ندرك الذات بما هو خارج عنها فاذا كان الله شخصاً فهو لا يعرف او لا يكون الاَّ بالنسبة الى ما هو خارج عنهُ فهو مقيد بما هو غير ذاتهِ وهذا ينافض اطلاقيتهُ على ان الفيلسوف لوتزي لم يرَ في هذا الاعتراض كبير اهميَّة فقال " نعم ان تصورنا الذات متوقف على تصورنا الخارج عنها ولكن العقل قد يعرف الذات قبل معرفة الخارج عنها فانهُ (اي العقل) لا يميّز بين الذات وغيرها الاَّ بعد ان يشعر بوجودهِ ذاتًا ثم يرى ما هو خارج عنهُ فوجود الذات لا يتوقف ضرورةً على ما ليس بذات ثم من نحن وما هي نفوسنا هذا السؤال جواب على نقصان وجداننا فاننا لا نستطيع ابدًا ان نصل الى معرفة الوجدان الكامل والوجدان الكامل يستحيل الاَّ في الذي لا نهاية لهُ وما الشخصية في الحدود الاَّ من بعض وجوهها " . والخلاصة مما تقدم ان الذاتية لا تتوقف على غير الذاتية بل هي مستقلة تمام الاستقلال وما الوجدان الاَّ معرفة وجود الذات . وان الشخصية الكاملة لا وجود لها الاَّ في الله وان كل ما فينا ليس الا صور تمثل تلك الحقيقة الكاملة

هكذا جرى العقليون في براهينهم على وجود الله مستندين على الفلسفة العقلية والوجدان العام وكثير من القوائم لا غبار عليهِ على انهُ لا بد لنا من اعادة السؤال " أمن إله وراء الاكوان " وكما اجبنا عليهِ بلسان العقليين نجيب عليهِ الآن بلسان الماديين

من النواميس المعروفة ان ما لا يتصورهُ العقل لا يجوز ان يقال ان لهُ صورةً في الخارج فانك لا تعرف بيتاً رأيتهُ ولا كلمةً قرأتها الاَّ ان يكون لها في ذهنك صورة تظهر لك عند رؤيتهما واذا قيل ان اسماء المعاني موجودة على حين ان العقل لا يستطيع تصورها قلنا ان اسماء المعاني ليست بشيء اذا لم يقصد بها شيء حادث طبيعي وعليهِ فوجود الله ليس من مدركات العقل بمعنى ان العقل لا يقدر ان يتصور الخالق شخصاً مستقلاً عن المخلوق . لان مجرد تصورهِ كذلك متناقض للصفات اللازمة لهُ فاذا قلنا انهُ شخص خارج عن العالمين اقتضى ان يكون لهُ حدود تمنع اطلاقيتهُ لان مجرد الشخصية تقتضي الحدود واذا قلنا انهُ العلة الاولى اقتضى ان يكون ايضاً مقيداً بالعلة وهذا ينافي اطلاقيتهُ او ان يكون وجد قبل ان صار علةً وهذا ينافي كمالهُ (فسرى وسبنسر)

مرَّ على جواب الامام ابي حنيفة سنون عديدة ونحن نجيب بهِ لما اعترض عليهِ معترض بقولهِ " كيف تجمعت قطع القارب بدون جامع لها " . قال بما معناهُ اذا لم تستطع قطع القارب ان تجمع نفسها فكيف الامر في تكوين الاكوان بدون مكوّن . على انهُ حان لنا ان نقول ان الجامع والمركب غير الخالق وان هذا المثل لا يفيدنا شيئاً في امر وجود الله . لانهُ كيف اتت المادة المركب منها الكون ؟ — هل وجدت قبل وجود الله وبعدهُ فان كانت قبلهُ لم يكن الله خالقاً وان كانت بعدهُ فهل يقبل العقل كونها حدثت من العدم . قال سبنسر " ولنسأل كيف اتى " الفضاء " فالخلقيون يقولون ان الله خلقهُ كما خلق المادة وهذا مستحيل تمثيلهُ للذهن ايضاً لان بذلك يقتضي ان الفضاء لم يوجد في زمن من الازمان وهذا مستحيل " . اما كون القوة الالهية موجودة في العقل البشري وجوداً عاماً فذلك دليل على ان الفكر بالله نشأ نشوءاً وقد بيّن ذلك سبنسر بقولهِ ان العائلة الاولى لم تعرف الله ولكن موت رئيسها الاول جعلها تعتقد بانهُ لا يزال حول البيوت فعبدوهُ وقربوا لهُ القرابين ولما مات الرئيس الثاني عملوا لهُ ما عملوا للاول فتولّد من ذلك عبادة الاسلاف

ثم ما زال العقل البشري يرتقي حتى قال بوحدانية الله وهذا سبب عمومية بين القبائل بقي ان نقول ان الماديين والعقليين كلهم يعتقدون بالوجود الذاتي — الماديون وجود المادة الذاتي والعقليون وجود الله والعقل المطلق الذاتي . فأيّاً يقبل العقل ؟ والجواب على هذا

يقودنا الى القضية الثالثة من بحثنا وهي المادة والعقل سيان او مستقلان ؟ واذا رجح كون العقل مستقلاً عن المادة رجح القول بوجود الخالق الذاتي والعكس بالعكس

في الانسان الحي ثلاثة اشياء لم يتفق العلماء بعدُ على معرفة نسبة الواحد منها الى الآخر — الجسم والنفس والحياة — فالاول « تراب والى التراب يعود » واما الثاني والثالث فلا يزالان غامضين على الباحثين الذين يتخبطون في ظلام الحقيقة تخبطاً . ومع ان المادة والنفس هما الامران اللذان يهمنا البحث فيهما الآن فلا بد لنا ان نسأل « هل النفس اصل الحياة ام الحياة اصل النفس » اما كون النفس اصل الحياة فذلك يقتضي ان النفس بوجودها في المادة تظهر لنا في طريق الحياة والعقل واذا كانت النفس حاصلة بعد الحياة اقتضى انهُ اما ان تكون النفس مستقلة عن المادة ولكنها لا تظهر الا متى كانت في استعداد تام لقبولها او ان تكون قوة كسائر القوى المادية المعروفة

خذ « الاميبا »(١) وهي حية هل لها نفس فاذا قيل ليس لها نفس انتفى وجود الحياة مستقلةً عن النفس واذا قيل لها نفس قلنا ذلك يقتضي ان النفس غير الوجدان او العقل وهذا ما لا يقبلهُ القائل بالخالق لانهُ يلزم عن ذلك ان النفس الشاملة الاكوان عديمة الفهم والتمييز واذا قيل ان الاميبا حيوان لا يقاس عليهِ قلنا خذ الرضيع او الجنين تر نفس الامر فيهما . فالقول بان النفس لا توجد الا بعد ان يمر على الحيوان طور من حياتهِ اثبت وافضل

قال الماديون ان المادة الاولى لما مرَّ عليها ازمان متطاولة وطرأ عليها فواعل مختلفة تولدت فيها احياء اولية بسيطة جدًّا لا نبات هي ولا حيوان ثم ارتقت هذه الاحياء بواسطة الفواعل الجمة من البسيط الى المركب وما زالت ترتقي حتى تفرعت النباتية والحيوانية في ابسط مظاهرها ثم تدرَّج كل من هذين الفرعين الى الانواع الموجودة الآن . ولم يكن في الاحياء الاولى بما يتبين من الاحياء البسيطة الآن ادنى قوة عاقلة بل كل حركتها كانت بحسب المؤثرات الخارجية حركات طبيعية محضة كتقلص المادة وامتدادها وما شاكل ثم لاسباب طبيعية تباعدت الانواع بعضها عن بعض وبالترقي كثرت مطالب الحي فصار يحتاج الى غير الحركات المادية العياء وظهرت فيهِ الاعصاب وكلما ارتقينا في سلَّم الاحياء نرى ان تقدم الاعصاب وازديادها امر مطَّرد فيها وما زالت الاعصاب ترتقي حتى وصلت في الحيوانات الفقارية الى قوة التصور وفي الانسان الى قوة الادراك والوجدان فالوجدان او النفس او العقل ليس الاَّ مظهرًا من مظاهر المادة كما ان القوة ليست الاَّ كذلك — حرِّك يدك تشعر بقوة خرجت

(١) ابسط الحيوانات المائية المعروفة

منك وحرّك دماغك تشعر بقوة عاقلة على انر تحريكك أقول ان الاولى من تفاعل جواهر المادة وان الثانية صبّت على الدماغ فسكنت فيه

ولست لولا الضرورة لانوّه بذكر الشوء كما اني لا اقصد ان اشرحهُ على انهُ لا بد لي من القول ان الشوء امر اجمعت على صحتهِ العلماء تقريباً نعم ان في المشاهد ما لا يجري حسب الظاهر على مقتضى هذا الناموس ولكن ذلك نادر جدًّا وتعذّر تطبيقنا اياهُ على مجرى الشوء العام راجع بالاكثر الى عدم فهمنا الاسباب التي قضت ان يكون كما هو خط الفرس مثلاً وقابل انواعهُ الآن بها في الماضي فترى ان اصابع القدم قد اصبحت ابسط مما كانت عليهِ مع ان ناموس الشوء يقتضي الانتقال من البسيط المتماثل الى المركب المختلف كما قال الفيلسوف سبنسر أتقول ان قدم الفرس تخالف هذا الناموس في حين ان الملايين من الامثلة الطبيعية لا تفسَّر الاَّ بهِ أليس من التعقل ان تقول ان الشوء في جسمٍ قد يقتضي ازدياد البساطة في بعض اجزائهِ لكي يزداد التنوع في الجسم جملةً . وكم احتجّ المعارضون لمذهب الشوء بان بعض القبائل تكاد تنقرض وان بعضها تراجع في الارتقاء وعدّدوا كثيرًا من الامثلة على ذلك وفاتهم ان تراجع بعض القبائل سبب لتقدم البعض الآخر وان العالم اجمع لا يزداد اختلافًا احيانًا الاَّ اذا تراجعت بعض اجزائهِ الى درجة البسيط ولقد يتحتم على بعض الاجزاء ان يتقرض لداعٍ من دواعي ذلك الناموس

قلت اني لم اقصد ان ابرهن صحة مذهب الشوء ولست لا تقدّم الى دحض الاعتراضات عليهِ فان ذلك يقتضي وقتًا ارحب من وقتي ولكني مقرٌّ بانهُ افضل التفاسير للمشاهد في الطبيعة وانهُ اقرب الطرق تناولاً من العقل . ولنرجع الى ما كنا فيهِ . — اذا ثبت مذهب الشوء ثبت ان الانسان حيوان راقٍ وان نفسهُ ليست الاَّ كسائر نفوس الحيوانات تختلف عنها فقط بكثرة الاختبار وازدياد المعرفة والادراك وان النفس او الذاتية العقلية ليست الاَّ الدماغ في حركاتهِ نستقرئ ذلك من درس الجهاز العصبي في طبقات الاحياء فدماغ الانسان ودماغ الحيوان واحد لا يفرقهُ عنهُ الاَّ ما طرقهُ من نتيجة الارتقاء ككثرة وُصل الاعصاب بين المراكز الدماغية وازدياد ثقل مادة الدماغ وجودتها والتخصيص في مراكزها والتنويع في مسالك المادة . وليس الذي يرتسم في الدماغ الاَّ نتيجة المؤثرات الخارجية . انظر الى لون احمر فتتأثر عيناك باهتزازات المادة تأثرًا غير التأثر الحاصل من سماعك نغمًا وهذا التأثر ينقل الى الدماغ بواسطة الاعصاب فترتسم فيهِ صورٌ مختلفةٌ بحسب اختلاف الاهتزازات الخارجية . فكما رأيت الاحمر عرفت انهُ احمر لان لهُ اهتزازات خاصة بهِ

— هو ذا رجل تراهُ لاول مرَّة ثم يغيب عنك سنين عديدة فتراهُ ثانية وتعرف انهُ الشخص بعينهِ وما ذلك الا لان رؤيتهُ المرة الاولى تركت في دماغك اثرًا فلما رأيتهُ المرة الثانية تحرَّك الاثر نفسهُ وصوَّر لك الصورة الاولى وزاد على ذلك صورًا استحضرتها اثناء رؤيتك اياهُ المرة الاولى . اعتبر ذلك في جميع ما يرتسم في دماغك من افكار وصور ترَ انها جميعها نتائج المؤثرات الخارجية مباشرةً او غير مباشرة . واذا اعتُرض بأن دقيقة الدماغ ليست بكافية لان تسع ما يجب ان تسعهُ على هذا الرأي قلنا ان جرثومة الحياة كافية لان تسع الوفا من الصفات من الوالدين والاسلاف فلمَ لا تسع دقيقة من الدماغ العجيب كل ما يرتسمهُ فيها المحيط . ومما يدلك على مادية العقل انك اذا انتزعت مركزًا ما في الدماغ بطلت القوة العاقلة المنسوبة اليهِ ومن العجيب ان تلك القوة قد ترجع كأن يتلافى الامر مركز آخر او ان يظهر مركز جديد بدل المفقود . على انهُ قد لا ينقض بذلك مبدأ الخلق فان كثيرًا من الخلقيين يعتقدون بالنشوء ويقولون ان الله خلق المادة ثم اجراها على هذا النظام وان النفس مرسلة من قِبَل الله وهي تظهر في المادة ظهورًا يناسب استعداد المادة لذلك فتظهر في الانسان غير ظهورها في القرد وفي القرد غير ظهورها في الحمار . قال رودلف شيد في كتابهِ المسمى "مذاهب دارون" "اذا قالت المادية ان المادة اختلفت وتنوعت بواسطة النشوء الطبيعي فذلك لا ينافي القول بوجود موجدٍ للمادة"

على ان قولنا هذا يتودنا الى القول بخلود الانسان والحيوان على السواء وهذا ما اوقع العلماء في ورطةٍ على انهم نهضوا منها وقالوا ان النفس تخلد بمعنى انها تفهم وجودها وتتذكر ماضيها وترى نفسها بنفسها فنفس الحيوان لم ترتقِ بعد الى هذه الدرجة فهي اذن ليست بخالدة

وفي سبيل القائلين بمادية العقل عثرات لا بد من الاصطدام بها فيها حريَّة الارادة والوجدان الناتي . فالارادة عندهم مقيدة وليست كما يقول (الاراديون) ومن ثمَّ بقي اقوال "هكل" "وبخنر" "وستروس" في ذلك لم يدهش جدًّا من قولنا ان الارادة غير حرة . اليست العواطف من نتائج المحيط حاصلة بحسب اللذات المتنوعة او بحسب الآلام العديدة . فالارادة انما هي اتباع العاطفة العظمى ولا يمترن احد فان العاطفة قد تكون مباشرةً من فعل المحيط كالسرور الحاصل من السباحة او غير مباشرة كالسرور الحاصل من توقع الشفاء اذا شرب الدواء . وانصياب العقل نحو العاطفة العظمى انما هو بالرغم عنهُ فهو مسوق بحكم اللذة الشخصية فهو اذن ليس بحرٍّ ولا ارادة فيهِ . وعندي ان تفسير الارادة على هذا النحو يفسر لنا الارادة في الحيوان فالحيوان مع ان عقلهُ لا يقارب البتة عقل الانسان

لها ارادة تمكنها احياناً من عمل ما تدفعها اليهِ اللذة الشخصية وهذه الارادة ليست حرة كما يظهر لنا من درس الحيوان فاذا يجوز لنا ان نقول ان ارادة الانسان من غير هذه الارادة وانها ليست هذه الارادة في طور من اطوار ارتقائها

وكيف رجعت الارادة الى اصول طبيعية هكذا أُرجع الاستدلال ولا لزوم لتبيان ذلك الآن فان اقل باحث يستطيع ان يقابل بين الادراك في الحيوان وبينهُ في الانسان ثم يرى بعين اللبب وضوح الطريق المؤدية الى ماديتهِ واذا كانت الارادة والادراك متيدين ماديين فلم يبقَ امامنا الاَّ الوجدان الذاتي وهو اكبر العثرات واصعب المصاعب في سبيل الماديةَ فكيف نفسرهُ؟

اذا تلاقت قوتان احداهما متجهة في خط مستقيم نحو الشرق والاخرى في خط مستقيم نحو الشمال اتحدت كلتا القوتين في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي وهذا ما نسميهِ " بحاصل القوى " . كذلك الوجدان ليس الاَّ حاصل كل القوى العقلية الناتجة عن المؤثرات الخارجية وهذه القوة الحاصلة تشعر بوجود جميع القوى فيها وتدرك وحدانيتها

ولقد اعترض لوتزي على هذا التشبيه بقولهِ . " لو فرضنا ان عددًا من الجواهر الفردة كان مجموعًا على طريقة بحيث لو دُفع لسار العدد كلهُ في خط مستقيم فان مجرد سيرهِ هذا لا يكون الا باحد شرطين (الاول) ان تتحول قوى جميع الجواهر الفردة الى جوهر واحد وهو غير المفهوم اذ لا تعود الحركة حركة الكل بل حركة نقطةٍ واحدة والثاني ان نتصوَّر ذلك في ذهننا فكأن تمثل القوى جميعها متحولة الى جوهر واحد . اعتبر ذلك في عدد كبير من الجواهر الفردة ترَ ان حاصل القوى لا يمكن ان يكون الاَّ امرًا تصوريًّا في الذهن . فالذهن هو الواحد الفرد الذي يضم جميع القوى ومهما تكن الحركات فمجموعها يستحيل ان يتحول الى حركةٍ واحدة ما لم يتناول ذلك شيءٌ واحد كالذهن او الوجدان "

فاذا فرضنا ان الفواعل الخارجيةَ تؤثر في جواهر الدماغ وتحدث فيهِ الانفعالات فأنى لها ان تتحوَّل الى شيءٍ واحدٍ بذاتهِ ما لم يكن وراء جميع ذلك شيءٌ فرد بذاتهِ وهو الذات او النفس او الوجدان الذاتي

فالوجدان الذاتي (او النفس) واحد ليس فقط لان الذات ترى نفسها واحدًا بل لانها تقدر ان ترى شيئًا ما واحدًا "

" قال ولا يمكننا ان نقيس الوجدان على مقاييس طبيعية . فان من حاصل القوى الطبيعية قد يتولد السكون وقد تمتزج القوى بعضها مع بعض فيتولد من ذلك قوى تختلف عن القوى

امتزجة اما في الوجدان فان الصور الذهنية لا يمكن ان تمتزج مع بعضها لتحدث صورة واحدة. خذ لونين او لحنين ترَ ان الوجدان لا يمكن ان يزجهما بل بالعكس تبقى صورتهما واضحة في اذهاننا ولو صح ان الوجدان من حاصل القوى للزم ان حاسة الالم تنقض حاسة السرور وهو غير المشاهد المعروف "

ولقائل ان الالوان قد تمتزج في الذهن وذلك متى نظر اليها وهي معطوفة الواحد الى الآخر فيردّ على ذلك بان امتزاجها ناجم عن امتزاج مسالكها في الاعصاب فهي تصل كذلك الى الذهن فالوجدان لا يمزج الصور مع بعضها بحيث ينتزع هويّتها بل الصور باقية فيه كما هي والعقل مع ذلك يقيس ويدرك وهذا ما يحدو بنا ان نقول بوحدانيّة العقل والوجدان " اهـ

فبناء على ما تقدم لا يمكن ان يكون الوجدان من حاصل القوى العقلية بل هو خارج عنها يراها ويتقدها فهو اذن ليس بمادة

ولما اثبت الاكثرون ذلك ومنهم كثير من اعلام الفلاسفة كلوتزي وديكارت سألوا اذا لم تكن النفس العاقلة مادة فكيف اتت والجواب بالطبع انها من النفس الشاملة الاكوان التي ترى كل شيء وتعرف كل شيء والتي لا تدرك وهي الله ولا تدركها نفوسنا لانها قاصرة محدودة. وقالوا ان وجود الله ضروري لامكان وجود العلاقة بين المادي والغير المادي لانهُ اذا ثبت ان في الانسان غير المادة فانّى لذلك الشيء ان يستقر في الجسم المادي ويكون لهُ هذه العلاقة الكلية بهِ . والجواب ان الله هو الجامع بينهما ولقد جعل بمقتضى حكمته الازلية ان يكون ارتباط النفس بالجسد ارتباطاً كليًّا. ونحن فاذا نقول — انقول ان النفس مادة ام غير مادة فاذا قلنا انها مادة او حادثة من المادة نقينا بذلك خلودها وجعلنا الانسان بعد ان يموت كقطعة الحجر لا يحس ولا يشعر وليس لهُ من وجود ذاتي . واذا قلنا باستقلالها عن المادة قلنا بخلودها ولكن لا نستطيع ان نتجاوز اكثر من ذلك فان العلم والفلسفة لم يهتديا حتى الآن الى معرفة الحالة التي تكون عليها النفس بعد الموت

ولقد علت جلبة اهل الاستهواء (التنويم المغنطيسي) وازعجوا الانام بحوادثهم العجيبة فقام بعض العلماء على اثر ذلك يبرهن ان النفس قد تكون مستقلة عن الجسد فتطوف العوالم وترى ما لا يرى وقصوا علينا من هذا القبيل ما لا يكاد العقل يصدقهُ بل وقد رأينا باعيننا ولمسنا بايدينا وسمعنا باذاننا ما فعلهُ المنوّم (ردي لا بلانك) بامرأته ليلة نومها في منتدى " بلس " في الكلية السورية الانجيلية فانها كانت تقرأ ادق الاعداد البالغة الملايين بكل دقة وهي مغمضة العينين وفي محل يستحيل عليها لو كانت تنظر اليها ان تقرأها

وكانت تعرف افكار الشخص من مجرد لمس يديهِ وتحلّ المعميات حلاً فوق طور الفهم البشري. بل وما قولنا في الذين يناجون الارواح وقد اصبحت مسائلهم اشهر من ان تذكر قالوا اليس في كل ذلك دليل على استقلال النفس عن الجسد . ولكنّ الماديين لم يتركوهم وشأنهم في الميدان بل قاوموهم ونصّروا لهم حوادثهم بحسب شرائع العقل الطبيعيّة — من ذلك ان العقل قوةٌ مادية كالكهربائية فكما انهُ اذا كان بين قطبين كهربائيين صلة جرت الكهربائية كذلك قد يتماثل عقلان ويتفاعلان فتجري القوة العاقلة من الواحد الى الآخر كما تسير القوة المادية في تلغراف مركوني او بطريقة اخرى لا نفهمها ومسألة الاستهواء لا تزال غامضة لا العقليين النظريين ولا الماديين يفهمونها اشير ذلك في ما جاء في المقتطف الاغرّ عن " قبل الولادة وبعد الموت " . ثم انظر الى تفسير بعض العلماء والى ضلالهم فلا تستملك عن ان تغرب من الضحك

***

ولنقف الآن قليلاً لنلتفتَ الى ورائنا لنرى اين كنا — اين كانت نفوسنا ولنا مما تقدم معنا الاختيار في احد ثلاثة

الاول — ان نقول اننا نحن البشر قد اتينا بالصدفة بواسطة التشوه العام واننا لا نفرق عن سائر الحيوان الاّ بدرجة ارتقاء دماغنا وان بين ارقى البشر واحطهم اكثر مما بين احطهم والقرد وان حدوث المادة امر لا يستطيع العقل ان يسلّم بهِ وان الطبيعة سائرة بدون قصد على ان قوانينها ازلية . وان كلّ شيء مقدّر بمعنى انهُ حادث لاسباب طبيعيّة وجدت قبلهُ فلا تداخل لاحد في شؤون الخلائق وعلى هذا نفي الخلق والخالق ونقول بقدم المادة

والثاني — ان الله موجود ولكن على غير ما نفهمهُ نعم انهُ علة العلل ولكنهُ مضطر في اعمالهِ . خلق المخلوقات اضطراراً وترك الطبيعة تسير حسب نواميس لا تتغير فهو بعيد عن العالمين ولا يتداخل في جزئيات الكون

والثالث — ان الله واحد موجود كامل . خلق المادة بمقتضى ارادتهِ ثم سنّ لها نظاماتها ورتب لها اشكالها . هو واهب الحياة والنفس وان النفس مستقرة في المادة ومحافظة علاقتها بها بواسطة قوة الله الواصلة الى كل جزء من اجزاء الكون " وانهُ كما ان المؤثرات الخارجية تؤثر في دماغك فتشوك من ذلك الصور المختلفة هكذا جرثومة الحياة تؤثر في نفس الخالق فيتولد من ذلك النفوس لسكن الاجسام " وان الانسان مطلق الاختيار حر الارادة خالد النفس وان الطبيعة الادبيّة لا تكون الاّ في المستقل عن المادة

بقي امامنا مذهب رابع رأيت القوم يخجون الى اعتناقه وهو مذهب اللاأدريين وهؤلاء يقولون ان كل ما نراهُ في الطبيعة ماديٌّ يُرجع فيهِ الى الميولى البسيطة الاجزاء وان وجود الخالق وازليتهُ امران لا يمكن للعقل البشري ان يتصورهما فهم مع انحرافهم الى المادية لا يقرون بأن ذلك المذهب يفسّر لنا اصل الاكوان والمادة بل يقولون كما ورد لسبنسر في "مبادئهِ الاولى" ان المذهب المادي وكل مذهب آخر مناقضات لا يسلم بها العقل

اما العلة الاصلية فيسمونها "المجهول" وهم لا يقولون ان المادة اصل العقل ولا العقل اصل المادة بل يقرّون انهما قوتان من قوى "المجهول" قد تكون الواحدة منهما اصل الاخرى وقد تكونان مستقلتين تمام الاستقلال . فهم يرفضون كل مذهب عما وراء الطبيعة ويقولون انهُ يستحيل ان نعرف الاَّ ما يعطينا اياهُ الاختبار

هذه هي زبدة الاقوال في نشأتنا فالى اين نحن صائرون ؟

قال "مكوش" بعد ان وضع لاستقلال النفس القضايا الآتية

"(١) انا نعرف النفس كشيء موجود لا يتوقف بقاؤهُ على مدة ادراكنا اياهُ

(٢) انا نعرف النفس كشيء دائم لا يتغير مهما تغيرت الحالات العقلية

(٣) انا نعرف النفس ككائن فاعل بالقوى العاقلة يؤثر فيها وتؤثر فيهِ

(٤) انا نعرف ان النفس المدركة غير المادة لانهُ كيفما التقتا في الكون نرى ان كل ما فيهِ حتى اجسامنا في اختلاف شديد عن نفوسنا

(٥) ان العقل يصل الى أوليات لا تدرك الاَّ على طريق البداهة وليس للاختبار من علاقة بها ."

قال "ومن بداهة العقل ما يدلنا على خلود النفس واهمها ما يأتي

(١) ان العقل يفرق النفس عن المادة بداهةً فاذا كانت موجودةً فماذا يلاشيها ألا ترى ان العقل لا يتبيل ملاشاة شيء ما . خذ القوى من يستطيع ان يلاشي قوةً طبيعيةً او ينقصها . فاذا كان العقل لا يقبل ذلك في الطبيعيات فكيف يجوز لنا ان نقول انهُ يقبل ذلك في القوى العاقلة الموجودة في الانسان

(٢) في العقل ما يدلهُ بداهةً على وجود الشريعة الادبية وعلى انهُ لا بد من عقاب المذنب ولقد رأى الباحثون ان الطبيعة الادبية من اوّل الادلة على خلود النفس حتى ان الفيلسوف كنت مع مقاومتهِ لكل برهان حسي قال بصحة هذا وبقوتهِ

(٣) في العقل ما يدلهُ بداهةً على ان كل نفس وما عملت وانهُ لا بدَّ من نتائج

الاعمال التي تأتيها النفس وان العقاب لا يقع على الجسد بل على النفس الجانية

على ان استقلال النفس قد يسوق الى القول بالتناسخ وهو مذهب واضح خطأه اذ يقتضي ان يكون للعقل وجدانات عديدة وهذا مستحيل لان الوجدان صفة لازمة دائمة لا تتغير فالقول باخلود امر توصل اليه بداهة كما توصل الى الاوليات الحسابية والهندسية. اه

واذا ثبت ان النفس تبقى بعد الموت فالى اين تذهب ؟ قال بعضهم ان النفس تمتزج بالنفس الشاملة الاكوان كما تمتزج نقطة الماء بالاوقيانوس العظيم وقال بعضهم بل النفس تنتقل من جسم الى جسم وقال الآخرون ان النفس خالدة بمعنى انها تكون مستقلة تعرف نفسها وتدرك وجودها

وليس القائلون بخلود النفس كل العلماء بل منهم من ينكر كل ذلك كما رأينا ويقدمون ادلتهم على استحالة خلود النفس . وينقد الواحد منهم آراء الآخر . هذا ما اردت ان أبينه في هذه المقدمة فان الباحث الحديث لا بد من ان يدهش لعدم اتفاق الفلاسفة — هذا يكذب ذاك وذاك ينقد قول هذا ولا حكم بين القوم لان العقل قاصر عن ان يُرجَع اليه في ذلك

الخاتمة

كل بحث في ما وراء الطبيعة حدس وتخمين — هذا ارسطو وديكارت وليبنتز ولوك وكنت وهملتون وسبنسر وهكسلي وهكل . من منهم على تضارب آرائهم فسر لنا شيئاً من ذلك . نعم ان اقوالهم في مشاهد الطبيعة اقوال حكمة وصواب ولكنهم انفسهم يقرون بان معرفة ما وراء المشاهد مستحيلة . وقد حاولت في هذه المقدمة الوجيزة ان ابسط المبادئ العامة في الفلسفة غير ان الانسان قد يستنتج منها ان الماديين لم يستطيعوا حتى الوقت الحاضر ان يقدموا البراهين المؤدية على عدم وجود الله وكذلك الالهيون لم يستطيعوا ان يوصلونا اليه على طريق المنطق والبرهان بل كل اقوالهم راجعة الى مناجاة الضمير ومناشد الوجدان والى مشاهدة القصد والحكمة في الكون والحرية في الارادة الى غير ذلك مما فند لهم مناوهم كثيراً من اقوالهم فيه واني لانصح الباحث ان ينظر الى روح الجيل الذي قام فيه احد الفلاسفة قبل ان يحكم على مبدإه فان الفيلسوف تكيف امياله كما تكيف اميال كل كاتب بحسب الاحوال والمحيط

ولما كانت الفلسفة لا توصلنا الى شيء ثابت تستند عليه فلم نطرح ما ورثنا قبل ان يقدم لنا ما نبدله به . نعم هذا هو نداء الباحث الطالب الحقيقة . وما يؤلم انك تسأل احدنا عن عدم اعتقاده « بعقة العلل » فيقول ان ذلك قد اصبح خرافة قديمة وتسأله عن الدين

فيقول الطبيعة الطبيعة وهو لا يفهم شيئاً عن الطبيعة المتدسة ولا يدرك شيئاً من اسرارها. ولست بمعترض على المرتاب المشكك في هذا الوجود الطارح كل ما لا يقبله عقله الباحث المخلص. وانما انا معترض على المرتاب لان الارتياب عنده من دلائل المهارة — ذلكم الذي اعترض عليه — المرتاب المقلد — آفة العلم والدين معاً

نعم لا بد للباحث من ساعة يقف فيها حيران يسأل عن الله وعن وجوده ويتلمس في تيه اسرار الوجود فيكتنفه الريب وتتكاثف حوله الشكوك. من منا اذا قال اني مادي يستطيع رد هذا الاعتراض وهو " لنفرض اننا في الفضاء شيئين وجدا منذ الازل من غير موجد فكونهما شيئين يقتضي كونهما منفصلين ومن العجيب ان هذين الشيئين تفاعلا في طريقة غير معروفة وحدث بتفاعلهما صور جديدة فكيف كان ذلك ولا شيء بينهما الا الفضاء والفضاء لا يقل شيئاً فلا يوصل بين امرين ؟ فاذا قيل ان قوى كل منهما كانت تشع في الفضاء ثم تلاقت وحدث بتلاقيهما ما حدث قلنا كيف يتصور العقل وجود القوة في الفضاء على غير ما يحمل القوة او يظهرها. اليس ذلك تحكماً محضاً واذا قيل ان لا فضاء بل الاثير مالئ كل مكان قلنا ولكن اليس الاثير نفسه مادة فماذا يا ترى بين دقائقه يوصل قواها بعضها ببعض "

ومن منا اذا قال اني مؤمن يستطيع ان يفسر لنا معنى الوراثة الصارمة. هوذا اولاد لم يأتوا فريداً يرثون السل والسفلس من اجدادهم ثم يورثونها بالدور الى اولادهم ليس للجيل الثالث والرابع بل والعاشر والعشرين قاي قصد في ذلك واي حكمة. قال هكل وهو من مردة المعطلين : —

" اذا تأملنا في حياة الاحياء كلها لا نرى الا كل ما ينافي السلام. فانه حيثما تطلعنا لا نرى الا الجهاد القاتل والعراك المستمر فاين ما تغنت به الشعراء وما نادت به الانبياء من المحبة والولاء ؟ أهو في ناموس بقاء الاصلح ام تنازع البقاء. اليس حب الذات الدافع الاعظم لكل حي في الكون او ليس كل شيء حادثاً بالانتخاب "

وقال سبنسر " العلم والدين مبدآن يختلفان بعض الاختلاف ولكنهما يتفقان في ان ما وراء الطبيعة لا يدرك "

هذا ما نتوصل اليه عن طريق الفلسفة والعلم والفيلسوف الحقيقي ليس بكافر وانما الكافر من نظر الى المسائل نظراً سطحياً ثم ادعى الكفر والانكار متابعة وتقليداً

المدرسة الكلية السورية الانجيلية ببيروت اليس ا. الخوري